

## أخلاق النورسي كأخلاق قرآنية

الأستاذ حسين عاشور<sup>(\*)</sup>

إذا كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو النموذج البشري الأسمى للأخلاق ، وهو القدوة الكبرى للبشرية في هذا الصدد ، فإن من الطبيعي أن يحاول كل مسلم أن يتحلى بما أمكنه من شمائل الأخلاق الحميدة ، ولاشك أن المصلحين والصدقات وأهل العزيمة أكثر حرصاً على التحلي بما أمكن من تلك الأخلاق ، وهكذا فإن الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي - ذلك المصلح الكبير - من أكثر الناس حرصاً على التحلي بما أمكن من تلك الشمائل ، ولاشك أن نجاح النورسي في دعوته ووصول رسائله وأفكاره إلى عدد هائل من البشر في تركيا وخارجها يرجع في جزء كبير منه إلى تحلى الرجل بعدد من الصفات الأخلاقية التي أعطته المصداقية والقدرة على الوصول إلى قلوب الناس، وأعطته الصلابة والقدرة على الصبر على ظلم الظالمين وتعسف السلطات معه في بعض الأحيان. ولأن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم - وهو القدوة في الأخلاق للشيخ النورسي - كان خلقه القرآن ، فإن شمائل الشيخ النورسي مستمدة بدورها من القرآن الكريم ، ولعلنا إذا ما تتبعنا مواقف حياة الشيخ النورسي، وكذا أفكاره وآراؤه واجتهاداته التي اشتملت عليها رسائله نجد أن الأخلاق القرآنية تهيمن على جزء كبير من أفكاره وممارساته على حد سواء، ومن الصعب بالطبع تتبع كل تلك الآثار في مؤلفاته ومواقفه وسيرته ، لأن ذلك يعني أن نتكلم عن كل شئ تقريباً وكل يوم وكل فكرة ، لأن الأخلاق القرآنية تسرى في كل ذلك سريانا خفياً وظاهراً وشاملاً ومستمر ، ولهذا السبب فإن تركيزنا على بعض المواقف والأفكار سيكون مجرد ضرب نماذج أو اختيار

---

(\*) المشرف العام لمجلة المختار الإسلامي، القاهرة

بعض الفاكهة من بستان كبير ، ولا يعنى هذا أن تلك المختارات التي سنقف عندها هي أفضل الفاكهة وأعطر الزهور في بستان الشيخ النورسي، بل هي مثل غيرها الكثير مجرد قطفات سريعة ووقفات أمام خصم هائل من المواقف والأفكار الأخلاقية . وفي الحقيقة فإن الشيخ سعيد النورسي نفسه يلفت نظرنا إلى حقيقة تأثره الأخلاقي والفكري بالقرآن الكريم، قائلاً "إن الحقائق والمزايا الموجودة في (الكلمات) ليست من بنات أفكاره ولا تعود إلى أبدا إنما للقرآن وحده، وقد ترشحت من زلال القرآن". وقياسا على ذلك فإن مواقف الشيخ سعيد النورسي وحياته ما دهى إلا رشحات من القرآن الكريم .

\* \* \*

واجه الشيخ سعيد صعوبات حمة في حياته ودعوته، وقد تنوعت تلك الصعوبات تنوعا كبيرا بدءاً من ظروف شديدة الصعوبة ظهر فيها الشيخ سعيد .. كان المنحنى الحضاري الإسلامي في ذلك الوقت في أسوأ مراحل نزوله، وكانت القوى الدولية تتآمر على الإسلام والمسلمين، وكانت الخلافة العثمانية تسقط، وكان العلمانيون والديويون ودعاة تنحية الإسلام والثقافة الإسلامية والشرع الإسلامي لهم الكلمة الأولى والأخيرة في كل المجالات تقريباً. بما فيها المجال الثقافي، أي أن الضغط كان هائلاً، ومع ذلك ورغم ذلك بل رغم حالات التعسف الواضحة ضد الشيخ من نفى وسجن وشائعات وحصار، رغم كل شئ نجح الشيخ سعيد النورسي في الصمود، وتوصيل دعوته وكلماته، وهذا يعنى أننا أمام مصلح يتمتع بصفات أخلاقية نادرة، يتمتع بالصبر والثقة في الله، يتمتع بالصلاة والتجرد، يتمتع أيضاً بالإخلاص وعدم الرياء، يتمتع بالتجرد وعدم الطمع، يتمتع بما يجعله أهلاً لأن يواجه قوى عاتية كبيرة متنوعة داخلية وخارجية، وهو الذي لا يملك إلا قلبه وعقله ولسانه ولا شئ أكثر!!.. يقول الأستاذ مصطفى صنغور أحد ملازمي الإمام في تلك الأيام الصعبة: إن المنظمات الإحادية السرية كانت تستهدف إزالة الشعائر الإسلامية ورفعها الواحدة تلو الأخرى، وطمس روح الإسلام في الأمة التركية التي رفعت راية الإسلام طوال ستة قرون بل منذ عهد العباسيين، ولتحقيق هدفهم هذا بدءوا بتنفيذ خطة تنشئة جيل يقوم بنفسه بعد ثلاثين سنة بإزالة القرآن ونزعه من القلوب، وفعلاً بدأوا بتنفيذ خططهم هذه ونجحوا في قطع روابط هذه الأمة بالإسلام وسعوا لها بشئ الوسائل، فالقضية إذن ليست قضية جزئية موضعية، بل هي

قضية عامة شاملة تتعلق بإيمان الملايين من أبناء الجيل المقبل وتتعلق بالحياة الأبدية لشعب كامل .. شعب الأناضول حيث شهدت تلك الفترة تحولات رهيبية ودماراً فظيماً، وعداءً شرساً للإسلام والقرآن، ونسى التاريخ المجيد لهذه الأمة البطلة حتى دفعت تلك المنظمات الإلحادية الجيل الناشئ - ولا سيما طلاب المدارس - إلى نسيان ماضي أجدادهم الملىء بالجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، وذلك بكلام براق في الظاهر لكي يقطعوا صلتهم بالإسلام حتى هبوا جواً ملائماً لإقرار نظام إلحادي سافر. فبينغي وضع تلك الأيام الحالكة القاسية الرهيبية نصب العين لدى دراسة دعوة الأستاذ النورسي وخدمته للقرآن والإيمان". وهذا الكلام من الأستاذ مصطفى صغور يدل دلالة قاطعة على أن صفات الأستاذ النورسي الأخلاقية كانت عالية جداً وإلا لما استطاع مواجهة تلك الظروف الحالكة القاسية الرهيبية!!..

\* \* \*

اهتم الأستاذ النورسي بكشف وتعرية وفضح وتحليل ما يمكن أن نسميه بالصفات الأخلاقية السلبية، وهو في هذا يكشف عن إيمانه بالصفات الأخلاقية الإيجابية من ناحية ويكشف أيضاً عن تمسكه بها، ويدعوا إلى الأخذ بها في نفس الوقت. وفي هذا الصدد فإنه يقتفى أثر الصحابة الذين كان بعضهم يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشر مخافة أن يقعوا فيه. ومن هذه الصفات الأخلاقية السلبية من دسائس شياطين الإنس والجن مثل حب الشهرة، وذلك لصرف خدام القرآن عن ذلك العمل المقدس وذلك الجهاد المعنوي الرفيع، وإفساد الإخلاص وإحباط العمل ومن ثم الفشل في النهاية. وهو هنا يكشف عن جانب حقيقي في شخصيته دون أن يتحدث عنه، وهو التجرد والإخلاص والترفع عن الجاه والشهرة، ولاشك أن ذلك كان أحد أهم عوامل نجاح دعوته ووصولها إلى قلوب الملايين. وثاني هذه الصفات هي الشعور بالخوف، ويرى الأستاذ النورسي أن الطغاة والظالمين الماكرين يستغلون كثيراً هذا الشعور لدى الإنسان فيلجمون به الجبناء، ويستفيد كثيراً جواسيس أهل الدنيا ودعاة الضلال من هذا الشعور لدى العوام، ولاسيما لدى العلماء، فيلقون في روعهم المخاوف ويثرون فيهم الأوهام. يمثل شخص محتال، يُظهر لأحداهم ما يخافه - وهو على سطح دار- فيثير أوهامه، ويدفعه تدريجياً إلى الوراء حتى يقربه من الحافة، فيرديه على عقبه فيهلك، كذلك يثير

أهل الضلالة عرق الخوف حتى يدخل بعضهم في فم الثعبان لئلا تلسعه بعوضة. ولاشك أن تمتع الأستاذ سعيد النورسي بعكس صفة الخوف -وهي الشجاعة والإقدام والثقة في الله كان عاملاً هاماً من عوامل نجاح دعوته، وهي بالتأكيد صفة أخلاقية قرآنية، ومن المفيد هنا أن نذكر حادثة تؤكد شجاعة الأستاذ النورسي ذلك أنه عندما احتل الإنجليز استانبول ودمروا المدافع في المضيق، سأل في تلك الأيام رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليزية من المشيخة الإسلامية ستة أسئلة، وكان الأستاذ سعيد في ذلك الوقت عضواً في دار الحكمة الإسلامية فقالوا له: أحب على أسئلتهم بستمائة كلمة كما يريدون، فقال لهم: إن جواب هذه الأسئلة ليس بستمائة كلمة ولا ست كلمات ولا كلمة واحدة بل بصفة واحدة، لأنه عندما داست تلك الدولة بأقدامها مضائقنا وأخذت بخناقنا ينبغي البصاق في وجه رئيس أساقفتهم إزاء أسئلته التي سألتها بكل غرور. ومن الطبيعي أن موقفاً كهذا كان يمكن أن يجرح المهالك والمشقة على الأستاذ النورسي، ولكنه كان يؤمن بأن الشجاعة خلق إسلامي رفيع ينبغي الأخذ به في كل الأحوال، بل أكثر من هذا كان يؤمن أن الشجاعة تنجي من المهالك بعكس الجبن، فهو يقول: إن أكثر من يجرح ويصاب في الحروب هم الذين يهربون، وأن أقل الجنود إصابة هم أولئك الثابتون في مواقعهم، فالآية القرآنية الكريمة تقول: "قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم" وهي تشير بمعناها الإشاري إلى أن الفارين من الموت يقابلونه أكثر من غيرهم. والصفة السلبية الثالثة هي الطمع، ويرى الشيخ النورسي أن الشياطين يقتنصون الكثير بشباك الطمع، يقول الشيخ سعيد: "الرزق مقدر بالقدر الإلهي، والله هو الرزاق ذو القوة المتين، ولذا يجب أن يكون الرزق حلالاً، والسعي له مشروعاً بدون إراقة ماء الوجه، وأن الاطمئنان بالقناعة يديم الحياة ويضمن الرزق أكثر من المرتب". ولاشك أن الشيخ النورسي قد ضرب المثل العالي في هذه الصفة، فقد كان زاهداً، لا يطمع في شيء من حطام الدنيا وتعالى دائماً على اللهات من أجل المال، وكان مثلاً يحتذى في رفض تلك الصفة السلبية - الطمع - والتحلّي بعكسها وهو القناعة. والصفة الأخلاقية السلبية الرابعة هي التعصب والعنصرية، والشيخ سعيد النورسي هنا يفند أفكار دعاة القومية التركية، ويعتبرها عملاً من دسائس الشيطان لأنها تأتي على حساب الانتماء الإسلامي، وبديهي أن الشيخ سعيد النورسي وهو الكردي الأصل كان يعكس الانتماء الإسلامي والإنساني الواسع الفسيح،

فوجه دعوته الإصلاحية للكرد والأترك والعرب وغيرهم على حد سواء، وكان يرفض دعاة العنصرية والتعصب للقومية التركية أو الكردية أو أى قومية عنصرية. والصفة الأخلاقية السلبية الخامسة هي الأنانية والغرور، ولاشك أن الشيطان يدفع الإنسان إلى الفساد والإفساد وتخريب الأرض عن طريق إثارة نزعة الغرور والأنانية فيه، ولاشك أن الشيخ سعيد النورسى قد تخلى عن الغرور والأنانية وإلا لما وصلت أفكاره إلى هذا العدد الهائل من الناس، حيث إن الغرور والأناني لا يمكن أن يصل إلى قلوب الناس مهما كانت درجة ذكائه إلا في حالات استثنائية وهي مؤقتة سرعان ما تتلاشى... أما استمرار الأجيال وتواصلها في الاقتداء بالشيخ النورسى يدل دلالة قاطعة على نفسية بسيطة غير مغرور وعن أنا غير متغطرسة. يقول الأستاذ النورسى: إن أخطر جهة من الأنانية هي الحسد والغيرة، فإذا لم يكن العمل خالصاً لله وحده فإن الحسد يتدخل فيفسد العمل. والصفة الأخلاقية السلبية السادسة هي حب الراحة والدعة، ولاشك أن الشيخ الأستاذ سعيد النورسى قد تمتع بعكس هذا الخلق السلبي، لا يركن إلى الراحة والدعة، بل شديد الحماس والنشاط وبذل الجهد في سبيل خدمة العلوم الإسلامية أو الدفاع عن حقائق الإسلام أو فضح أفكار الظالمين والملحدين، ويرى الأستاذ سعيد النورسى أن هناك طرقاً شيطانية عديدة لفتنة الإنسان ودعوته إلى الدعة والراحة وصرفه عن الحماس والنشاط، ويؤكد الأستاذ النورسى على أن الإسلام يحض على الصبر والنشاط والهمة لقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا، اصبروا وصابروا، ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون". وهكذا فإن الشيخ سعيد النورسى كان يتمتع بحق بالصفات الأخلاقية الإيمانية، وهي أخلاق قرآنية في جوهرها، وهكذا فإن أخلاق سعيد النورسى كانت أخلاق قرآنية.